تاريخنا الإسلامى والطبيعة البشرية

فى كل التجارب التاريخية ثمة رصيد ثابت للطبيعة الإنسانية فى مستوياتها التعبيرية المختلفة . . .

إن الإنسان ـ وهو يعيش إنسانيته ـ ليس نسقًا واحدًا مضطردًا بطريقة آلية ؛ بل هو مزيج مركب من العناصر والتناقضات التى تجعله يعيش ـ إلى حد كبير ـ قدراً كبيراً من التوتر والصراع داخله بين القوى المختلفة . . . كما أنه ـ بهذا الكيان المركب ـ يواجه الحياة الخارجية التى تخضع ـ هى أيضًا ـ لنمطية متدافعة بين قوى الخير وقوى الشر . . .

فثمة توتر فى داخل الإنسان ، وثمة تدافع بين الإنسان ونوعية الحضارة التى يبدعها الإنسان . . .

ومن البدهيات أن هذا التوتر ـ فى الداخل أو مع الخارج ـ هو نفسه الطريق لإبداع الحضارة . . . إذ السكون المطلق هو الطريق الطبيعى للجمود والموت . . .

وكل ما تصنعه المبادئ الرفيعة فى رحلة التاريخ ـ وعلى رأسها الإسلام ـ أنها تجعل الإيقاعات المتنافرة متناغمة ، وأنها تحُول دون أن تقضى الشوائب والسلبيات على نهر الحياة الإنسانية . . . فيبقى الشر ـ وبخاصة فى مراحل الازدهار ـ محصوراً فى جوانب قليلة ، وفى دائرة الشذوذ ، بينما يمتد الخير إلى معظم المساحة الإنسانية ، ويمثل ـ بالتالى ـ قاعدة الحياة الإنسانية . . . إن المجتمع الذى لا أخطاء فيه ليس إنسانيًا ، ومثل هذا المجتمع لا يوجد ـ ولا يمكن أن يوجد ـ

فى التاريخ البشرى . . . والفترة التى وجد فيها الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ولا سيما فى لحظات انتصارهم، وسيطرة مبادئهم هى أعلى المراحل التى يمكن أن تصل إليها البشرية . . .

إنها المثال الذى تضعه العناية الإلهية فى «نموذج تاريخى» واقعى لكى تبقى البشرية متفائلة مقاومة للشر، متوترة، ساعية إلى الوصول إلى أقرب نقطة ممكنة من هذا المثال الحى الواقعى.

وليس فى طوق الطبيعة الإنسانية أن يقوى الناس جميعًا ـ أو أكثرهم ـ على الوقوف فى القمة والتشبث بمواقع البطولة والمثال .

إن سحرة فرعون الذين قالوا عندما تألقت الحقيقة فى ضمائرهم ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١].

وفاجأوا فرعون بإعلانهم: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥]، غير عابئين بتهديده الرهيب: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣ ـ ١٢٤].

إن هؤلاء السحرة قد ارتفعوا فى لحظة من التاريخ إلى أعلى ما تستطيع الطبيعة البشرية أن تصل إليه، وليس لنا أن نتوقع أن يكون كل الناس مؤهلين لهذا الارتفاع، ولا لهذا القدر من التضحية الرائعة، ومن التفانى فى الحق المتألق . . .

كما أنه ليس مطلوبًا من كل الناس أن يكونوا فى مستوى أبى بكر الصديق؛ الذى يتبرع بكل ماله . . . إن أبا بكر مجرد (نموذج للمثال)، أما المستوى المتناغم مع الطبيعة البشرية فهو المستوى الذى حدده الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عندما منع (سعد بن أبى وقاص) من أن يتصدق بكل ماله؛ بل رضى له ما هو أقل من ذلك؛ حتى يذر ورثته أغنياء لا يتكففون الناس، وحسبه أن يهب ثلث ماله . . . بل إن الثلث كثير!!

ونموذج الأنصار الذين منحهم القرآن أرفع درجة فى التاريخ ـ الإيثار بالمال والأرض ـ هو أيضًا مجرد نموذج للمثال الذى يقدم أروع صورة تستطيع البشرية

أن تقترب منها، وليس شرطًا أن تكون فى مستواها، فيصبح كل مسلم قادرًا أن يقول لكل مسلم: انظر أى مالى أطيب فخذه، أو انظر أى زوجتىَّ شئت فأطلقها لتتزوجها . . !! إن هذا المستوى ليس هو المستوى العادى للطبيعة البشرية . . . إنه الومضات الإنسانية؛ التى تمثل أعلى ما يمكن أن يصل إليه البشر . . . إنه مستوى القمة والمثال . . .

وليس من الموضوعية؛ أن يحاكم التاريخ البشرى بأقوى وأكبر مما تطيقه الطبيعة البشرية . . . وحتى القوانين الوضعية ترفض هذا المقياس؛ لكن بعضها - مع الأسف - تتدنى فتهبط خضوعًا للضعف البشرى إلى مستوى تقنين هذا الضعف، وجعله فى نطاق الجائز، بدلاً من أن يُدعم جانب مقاومته لتصعد به إلى المستوى المنسجم مع الطبيعة البشرية، تلك الطبيعة التى لا يجوز لها أن تستسلم لصور الضعف، وتقبل تحويلها من دائرة الشذوذ إلى دائرة القاعدة، ومن جانب الخطأ إلى جانب الصواب!!

وأحرى بمنهج دراسة التاريخ وتفسيره؛ أن يلتزم هذه العدالة فى التقويم، وأن يضع فى وعيه التصور الموضوعى للإنسان كله، بكل قوته وضعفه، وبكل العناصر التى ركب منها.

إن محاولة رفع بعض عصور التاريخ إلى درجة فوق مستوى البشر وطاقة البشر، بهدف التدرج من هذا الارتفاع إلى محاسبتها بميزان غير بشرى، ومطالبتها بأن تكون متجردة من كل النوازع البشرية، ومن كل ما يجوز على البشر . . . إنما هى مؤامرة لتشويه هذه العصور (!!) والعلمانيون يستثمرون هذه المؤامرة!! بهدف مسبق هو تشويه تاريخنا الإسلامى، ورجاله العظماء، ودوله العظيمة.

إننا نوافق بالطبع؛ بل نحن نؤمن، بضرورة أن تكون بعض عصور التاريخ، وأن يكون بعض صناع الحضارات العظمى، بعيدين عن التدنى إلى المستوى العادى فى الأخطاء، وبأن يكون لهذا المستوى الرفيع تعبيره الخاص عن بشريته بما ينسجم مع القمة التى يمثلها . . . ونحن نستطيع فى ضوء هذا الوعى تحليل بعض التصرفات التى تعزى إلى هؤلاء تحليلاً مناسبًا لمكانتهم؛ لكن تجريدهم من

المستوى البشرى - بإيجابياته وسلبياته واجتهاداته العقلية والسلوكية الصحيحة والخطأ أو المعيبة - ووقوعه تحت ضغوط أو ردود أفعال ومؤامرات؛ إنما هو أسلوب غير موضوعى وغير صحيح !!

ولقد سقط كثيرون - سقوطًا منهجيًا فى الأساس - عندما تعاملوا مع تاريخنا، غير مسلحين بهذه الرؤية التاريخية الإنسانية الموضوعية . . . وسواء كان الأمر عن حسن نية، أو سوء قصد، فقد انتهى كثير من هؤلاء - نتيجة فساد منهجهم - إلى تجريح بعض الصحابة، وإلى تضخيم صور الخلافات بينهم، وإلى القول فى نهاية الأمر بأن شريعة الإسلام لم تطبق إلا فى حقبة من الزمان، تنتهى بنهاية عصر الراشدين (٤١هـ) . . . أما العصور التالية، والتى تبدأ بالدولة الأموية (٤١ - ١٣٢هـ) وتستمر حتى اليوم، فهى عصور (علمانية) غابت عنها الشريعة، وحكمتها معادلات سياسية مصلحية، وأوضاع اجتماعية واقتصادية بشرية لا صلة لها بتعاليم الإسلام (!!) وهذا قول بالغ الفساد، عظيم الظلم لا ينتمى إلى تاريخنا بصلة، وقد قدمنا بعض الصور من صفحة القضاء تؤكد سموّ هذا التاريخ وتظهر المكانة الرفيعة التى احتلتها الشريعة فى حياتها.

وفى الصفحات التالية نعرض للتاريخ الإسلامى بعد الراشدين، وصولاً إلى التحليل النقدى الموضوعىّ له . . .

تاريخ ما بعد الراشدين والتحليل النقدى

لقد عالج كثيرون - مسلمون وغير مسلمين - تاريخنا بمنهج غير علمى، وقد جاء تقويمهم جانحًا يميل إلى الإفراط أو التفريط . . . وقد غلبت على بعضهم نزعات مذهبية جعلتهم يحللون النظم والدول والوقائع وفقًا لرؤية مسبقة، وقلما ينجحون فى كشف حجب التاريخ ورصد الوقائع رصداً موضوعيّاً . . .

لكن مثقفى الأمة وجمهور مؤرخيها استطاعوا - بمنهج النقد المستفيد من منهج علم الحديث إلى حد كبير - رصد الخلفية المذهبية لهؤلاء، ومن ثم تحليل كتاباتهم التاريخية، وتقويمها تقويمًا علميّا . .

وفى هذا السياق؛ رَصَدَ المنهج التاريخى الإسلامى تلك المصادر التى يتحرك مؤلفوها بخلفية مذهبية مسبقة، تحول دون تحقيق القدر المقبول من الموضوعية . . . ولم يترك تاريخنا دون تحليل نقدى كما يزعم أركون وتلامذته !!

وبدءاً من تدوين السيرة كان ثمة تقويم خضع له رجالُ التدوين الأولون، بعيداً عن التعصب والهوى . . .

فقد قيل عن شرحبيل بن سعد (ت ١٢٣هـ) إنه يميل إلى العباسيين لأسباب مصلحية !!

وقيل عن وهب بن منبه (ت ١١٤هـ) إنه شغوف بالطرائف التى أوقعته فى الإسرائيليات . . .

وقيل عن الواقدى (٢٠٧هـ) إن له ميولاً لآل البيت .

وقيل عن أبى مخنف لوط بن يحيى الأزدى (١٥٧هـ) إنه يميل لآل البيت ولقبيلة الأزد [١] .

أما كاتب السيرة الكبير ابن إسحاق (ت ١٥١هـ) فقد هاجمه المحدثون؛ لأن الفروق بين منهجى الحديث والتاريخ لم تكن وضحت، وكان المحدثون - جزاهم الله خيراً - يريدون أن تكون درجة روايات التاريخ فى مستوى درجة روايات الحديث . . . وأن يخضع المؤرخ لشروط المحدث، ولهذا فإن وقائعه تحاكم إلى ما ورد فى القرآن والسنة الشريفة . . . لكن المراحل التالية للقرن الأول يصعب أن تخضع لمنهج الجرح والتعديل الذى خضع له رجال الحديث . . . وإن كان هذا مطلبًا كريمًا يجب أن يعمل المؤرخون على تحقيقه . . !!

ولئن كان هذا الجيل من التابعين وتابعى التابعين قد تعرضت رواياته لبعض النقد . . . فقد اتجه النقد إلى المؤرخين الذين جاءوا بعدهم من باب أولى . . .

---

(١) محمد ياسين مظهر الصديقى : قضايا كتابة التاريخ الإسلامى وحلولها، نشر الجامعة السلفية بنارس - الهند - جمادى الآخرة (١٤٠٩هـ) ، انظر محمد السلمى : منهج كتابة التاريخ الإسلامى، ص: ٤٨١، طبع دار طيبة بالرياض، الأولى (١٤٠٦هـ)، وكل المسلمين يحبون آل البيت؛ لكن المراد بالميل هنا الاقتراب من ظلم من اختلفوا مع آل البيت وليس مجرد تخطئتهم !! .

فقد ذكر المؤرخون أن المسعودى (ت ٣٤٥هـ) كان ذا ميول لآل البيت، دفعته إلى التحيز ضد الأمويين، ومع ذلك تمتع بقدر من الاعتدال والموضوعية؛ عندما تحدث عن معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه وعن عبد الملك بن مروان، وغيرهما من رجال بنى أمية !!

وكان اليعقوبى يمضى فى الطريق نفسه؛ بل كان واضح التحيز لآل البيت !!

أما أبو الفرج الأصفهانى (٣٥٦هـ) صاحب الأغانى، فقد كان أجيراً لبنى بويه (الشيعة)، وقد كتب لهم الأغانى بغية الأجر والمكافأة، وقد عرف ما يرضيهم، فأدان الأمويين، وبعض العباسيين، وبعض آل البيت من أجلهم، وبالغ فى ذلك حتى ينسى الناس أصله الأموى !!

بينما كان ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ) صاحب صورة الأرض، جاسوسًا للفاطميين يحرضهم ضد الأندلس، ويسب الأندلسيين والأمويين فى الأندلس من أجلهم . . .

وكان المؤرخ المغربى عبد الواحد المراكشى (ت ٦٣٠هـ تقريبًا) صاحب (المعجب فى تلخيص أخبار المغرب) يعمل موظفًا لدى الموحدين، وقد كتب كتابه (المعجب) من أجلهم، وليس لنا أن نتوقع منه إنصافًا للمرابطين؛ الذين قضى الموحدون عليهم بطريقة دموية آثمة !!

والأمثلة كثيرة لا نريد أن نستطرد فى ذكرها، من أجل تأكيد حقيقة ثابتة؛ وهى أن المؤرخ المسلم الذى يضرب بجذوره فى أرض «علوم السُّنَّة»، والذى تَشكَّل أساسًا على منهج إيمانى نقدى إبداعى باحث عن الحق المجرد، لم يكن مؤرخًا تقليديًا نمطيًا استسلاميًا سكونيًا، كما يحاول خصوم الحضارة الإسلامية أن يصوروه !!

وما كان العقل النقدى المسلم ـ لو كان عقلاً سكونيًا تقليديًا ـ قادراً على إفراز عمالقة فى علم نقد الرجال، وفى نقد المتن (المضمون) يعدون بالآلاف فى حضارتنا، وعلى رأسهم أئمة الحديث المعروفون، وعلى رأسهم البخارى

Obeikandl.com

ومسلم والترمذى وأبو داود والنسائى، وابن ماجه، وعدد كبير من الفقهاء وعلى رأسهم أئمة المذاهب الثلاثة عشر [1] الذين انتشر من بينهم فقه أقطاب المذاهب الأربعة أبو حنيفة (ت ١٥٠هـ)، ومالك (ت ١٧٩هـ)، والشافعى (ت ٢٠٤هـ)، وابن حنبل (ت ٢٤١هـ) ثم الظاهرية بقيادة داود الظاهرى، وأبو محمد على بن حزم (ت ٤٥٦هـ)، ثم الإمام (أحمد بن عبد الحليم بن تيمية) (ت ٧٢٨هـ)، والمؤرخ الاجتماعى الكبير/ عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ)، الذى يعده المؤرخون الأوروبيون ـ المنصفون ـ أول من وضع نظرية فى علمية (علم التاريخ) وفى قوانين (تفسير التاريخ) !!

وعبر تاريخنا الممتد فى الزمان أربعة عشر قرنًا، والممتد فى المكان إلى مساحة كبيرة من أكبر قارات الأرض، والتى شملت ـ فى قرون كثيرة ـ دولاً تقترب من نصف العالم، وتسيطر على العالم المتحضر ما يقرب من عشرة قرون .

عبر هذا التاريخ ظهر آلاف من المشتغلين بعلوم النقد المنهجى، بدراسة علوم الحديث، وفروع السيرة والتاريخ، وبرصد الجوانب الإصلاحية والحضارية . . .

وكان هؤلاء جميعًا يتعاملون فى الإطار البشرى، بمعنى أنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ، فكل إنسان غيره يؤخذ من قوله ويترك، والمهم أن يكون النقد منهجيًا قائمًا على أصول علمية، ولا يكون مجرد دعاوىً أو افتراءات واختلافات، وقد وضعوا كتبًا فى أدب الاختلاف وأدب الحوار، وفى منهج الوصول إلى الحق من خلال النقد والتمحيص القائم على قواعد صحيحة والهادف إلى الحق . . . وقد انطلقوا فى ذلك من القاعدة النبوية الكريمة؛ التى تعلمهم أن المجتهد الذى تتوفر فيه مؤهلات الاجتهاد، والذى يلتزم منهج الحق مثاب، سواء أصاب فى اجتهاده أو أخطأ . . وحتى يبذل المجتهد أكبر جهد فى الوصول إلى الصواب، أعطى الإسلام المجتهد المصيب أجرين، وأعطى المجتهد المخطئ أجرًا واحدًا !!

(١) من المذاهب الفقهية التى انتشرت : الظاهرية، ومذهب الأوزاعى، وسفيان الثورى، والليث بن سعد، ويحيى بن عيينة، والحسن البصرى، وسعيد بن المسيب . . . وغيرهم بالإضافة إلى أصحاب المذاهب الأربعة.

وفى حضارتنا العلمية كانت الأحكام الإجمالية مرفوضة، فالعقل المسلم درج منهجه فى علوم الحديث وأصول الفقه والتفسير واللغة والبلاغة على تفكيك القضايا وتحليلها، ومن ثم إعادة تركيبها.

وقد بالغ العقل المسلم فى التحليل (التفكيك عند أركون) لدرجة جعلت بعض المستشرقين (والمستشرق جب [1] على رأسهم) يتهمون العقل المسلم بأنه عقل «ذرى» (أى جزئى غير قادر على التركيب والتقنين الكلى) !!

وعندما كان المسلمون يمرون ببعض محطات التخلف كانت تظهر فيهم - مثل غيرهم - بعض مظاهر التخلف؛ التى يرصدها خصومهم، ويزيد بعضهم برؤية مضادة وظالمة أن يجعل من هذه المظاهر سمة عصورهم كلها، وبالتالى سمة دينهم وحضارتهم !!

وإن أمة تملك علوم الجرح والتعديل، وعلوم النقد التاريخى قبل أن تعرفها البشرية، وتسبق العقل الحديث فى التعرف على تفسير التاريخ، وعلوم العمران والحضارة . . . هذه الأمة لا تحتاج إلى من يلفتون نظرها - من خصومها - إلى ضرورة نقد أصولها . . . إنهم لا يريدون نقداً؛ وإنما يريدون هدماً.

* * *

(١) انظر : كتابه (وجهة الإسلام) لكن (جب) تجاهل فى هذا الاتهام أمرين :
أولهما : أن الذرية التى لا تعود إلى التركيب من سمات كل عصور التخلف وليست خاصة بجنس دون جنس.
وثانيهما : أن المسلمين أفرزوا مناهج علمية واكتشافات وقوانين وكليات وعلوما ونظريات رائعة فكرية وتطبيقية فى عصور ازدهارهم.